



yehiatrakhawy@hotmail.com

نشرة "الإنسان" 2018/07/21  
السنة الحادية عشرة - العدد: 3976

د. يهيا خاوي - الطب النفسي، مصر

### مقدمة:

نبدأ اليوم نشر فصول رواية "ملحمة الرحيل والعود" (1) "تباعا في هذه الأيام الثلاث (السبت/الأحد/الأثنين من كل أسبوع) وهي الجزء الثالث: من ثلاثية "المشى على الصراط".

### مقدمة:



هذه رواية مستقلة، برغم أن أكثر شخصها هم بعض

أفراد الجيل الثاني لشخص رواية "المشى على الصراط" التي صدر منها جزءان: الأول: الواقعة،

والثاني: مدرسة العراة. (واستحقا جائزة الدولة التشجيعية) على الرغم من ذلك فهي رواية مستقلة.

بدأت كتابتها استجابة لاقتراح الصديق (الحرفوش) توفيق صالح لتحويل فكرة أعجبتة أسميتها "الحج

الإلكتروني"، كانت قد أثبتتها في مقال لي بالأهرام بعنوان: "ماذا بعدما لعبنا لعبة الألفية؟" الأهرام

2000/1/18)، اقترح الصديق توفيق إلى تحويلها إلى تشكيل روائي ظنا منه أنها قد تصلح لتقديمها في

عمل سينمائي، ينقلنا إلى الميتافيزيقا دون ميتافيزيقا، اقتنعت وشرعت في كتابتها وإذا بها تكمل رواية

المشى على الصراط ثم تدفقت المسودة حتى اكتملت خلال ما يقرب من سبعة أسابيع (من ظهر يوم 22

يوليو 1999 حتى الساعة 55، 12 يوم 14 سبتمبر 1999) بعنوان "ملحمة الرحيل والعود"، وكانت

بنفس الحجم الحالي

تاريخ الأحداث - إن كان لها تاريخ- هو تاريخ المسودة.

عادت المسودة إلى الكمون لأكثر من ثلاث سنوات نتيجة ارتباطها الخانق باقتراح الصديق الجميل.

ثم مرت الرواية بعد ذلك بمراحل كثيرة في محاولة التخلص من الفكرة الوصية الأولى، فلما اكتملت

كجزء ثالث من قضيتي الأزلية، "المشى على الصراط"، قيس لها أن تظهر أكثر تماسكا مع الجزأين

الأول والثاني، وأكثر استقلالاً في نفس الوقت.

أما أنها "كتاب" أو "رواية" في العلاقات البشرية والمسار والمصير، فهو تمسكٌ بنفس الخطأ الذي

جعلني أعتبر الجزأين الأول والثاني "رواية علمية"، وربما شجعني على التمسك بهذا الخطأ عنوان رواية

ميلان كانديرا "كتاب الضحك والنسيان".

وهذا هو الفصل الأول

"سوق السلاح"

-1-

أعرفه، لا أنا ولا أنته نطع

للذواج.

. لا يطلع أحدنا للآخر على

الأقل، لكن على أطلع لشخص

أعقل

متى يرجع، لم يكن قد قدر أن يرجع أصلاً، لم يكن قرر أن يقرر شيئاً، هذا النور الذى يأتى من تحت عقب الباب...، لا يمكن أن يكون قد أضاء النور صباحاً حين خرج، لا توجد آثار عنف، الباب متين قديم، هى ذات العمارة التى تبنى فيها فى سوق السلاح، تزوج فى ذات الشقة بعد وفاة أمه، مازالت رائحتهم ووقع خطواتهم وهمس حضورهم تملأ أرجاء العمارة من بئر السلم حتى وراء التسريحة، ابتسم دون أن يطمئن. ثم ابتسم ثانية.

فكر أن يتراجع وينفذ فكرة السفر، الساعة تخطت منتصف الليل، رأسه ثقيل، كان قد عرج إلى ميدان التوفيقية منهكا من كثرة المشى طول النهار، كان ملح الترمس زيادة، وكان هو جائعاً ويريد أن ينام، مادام المفتاح قد دار فى قفل الباب فهى شقته، آثار ما تبقى تكفى أن تساعد على اقتحام الشقة ومخاوفه معا.

توكل، بطريقته الخاصة، دخل بسرعة وأغلق الباب خلفه لاصقا ظهره إليه فى وضع استعداد، هذا ما يذكره تحديدا منذ التدريبات على حرب العصابات أيام الحماسة والأمل، كاد يثنى ذراعه ويشير بسبابته، ابتسم تلقائياً وكأنه يؤدى مشهداً فى تمثيلية أطفال ليس لها مخرج، رائحة السجائر الطازجة تملأ أنفه، لم يعد يدخن لكنه يحب هذه النكهة.

”من بالداخل؟“، لم يقلها، هذا ضد أول دروس الاقتحام.

جاءه صوتها وكأنها لم تغادر البيت قط:

. جئت أخيراً يا جلال؟ أين كنت... طول النهار؟ .

. من؟ .

. أنا.

. عارف.

. شاطر.

. يا خير! متى عدت؟

أخبرته . بسرعة . وقد تبينت ما به، كيف أنهت عقدها وتركت كل شئ وعادت من يومين، وأنها تذكرت . ليس فجأة . أن اليوم هو عيد ميلاده، ولأنها تعرف أنه يحب أن يزعم أنه لا علاقة له بهذا اليوم، وأنه ليس مسؤولاً عنه، فقد فضلت أن تحضر دون مكالمته، حتى لا تتردد هى، أو يتسحق هو، تذكرت أن المفتاح مازال معها، فحضرت، (ما أسخف أن نعتقد أنه لا يمكن أن يكون كذلك)، قال لها:

. هكذا إذن.. هو هذا؟

. آين كنت طول النهار؟

. لا، أبدا.

لم يقل لها كيف لف طول النهار، وكيف أن المفروض أنه كان فى طريقه الآن إلى آسيا الصغرى، هو الاسم الحركى الذى يطلقه على جنوب سيناء، على ”ذهب“ بالذات، بمجرد أن يعبر نفق الشهيد أحمد حمدى يحل به وعى أسبويى خاص، يجعله شخصا مهذباً يمكن أن ينحنى لمن يحييه وهو يضم يديه إلى بعضهما أمام صدره، لم يقل أياً من ذلك، فقط.. قال بحب لا يخفى:

. حمدا لله على السلامة.

. الله يسلمك.

. أوحشتنى.

. وأنت.

ثم ماذا؟ هو يحبها بصحيح، يحبها أكثر بعد أن افترقا، يود أن يريح رأسه على كتفها، يريد أن ينام على صدرها ويتنفس بهدوء، لا أكثر، لماذا حضرت وهو فى هذه الحال، يشعر بضعف طيب، يريد أن يبكى، يريد أن يعتذر لها عن أى شئ، وأى حدث، إلا عن الطلاق، فهو ما زال . طبعاً . يصر عليه، هل قرأته حرفاً حرفاً؟ (كالعادة) قالت:

. ما عليك، الصباح رياح.

لا توجد امرأة تود، أو توافق أن تكون مطلقة من رجل تحبه، لكنها أرادت أن يظل ما بينهما أعلى من أن يشوه بضربان الزواج العشوائية

شئ ما يبدو قريباً ببتعد، أو بعيداً يقترب، كيف يبدأ؟

هو مازال يحبها، أى حب هذا الذى يتأكد بالانفصال ويختلّ بالقرية؟

إنه حين قرر أن يضى شمعاً واحدة أمس بدلاً من أن يطفى 41، كان يعنى ما يفعل، شعر بقوة حقيقية تسمع له أن يفعل كل ما كان يتردد فى فعله، يذهب، ويعرض، ويرفض، ويذهب ثانية، وهكذا، لن يحمدا، ولن يرجع، ولن يكتف لا عن السياسة، ولا عن الأمل، سوف يغير اللون من القاعدة هذه المرة

. صباح؟ .  
. سوف أبيتُ هنا.  
. هه؟ أهلاً وسهلاً.  
. مازلنا مطلقين.  
. طبعاً.  
. وسوف نظل كذلك.  
. أعرف، لا أنا ولا أنت نصلح للزواج.  
. لا يصلح أحدنا للآخر على الأقل، لكن لعلى أصلح لشخص أعقل.  
قالتها وهى تلمس على شعره برفق دافئ، أغمض عينيهِ وكاد يغفو تحت جناحها، مع أنها كانت بعيدة.  
. طبعاً.  
. كيف حالك يا جلال، تصور أنى مازلت أحبك.  
. وبعد؟ ” وأنا أيضاً،.....، هه..  
قال ذلك دون أن يرفع رأسه، فأكملتُ:  
. ألهذا تمّ الطلاق؟ .  
. لننظر نحب “بعض”، أليس هذا أفضل؟  
. أفضل من ماذا؟ .  
. إن الواقع دائماً أفضل.  
. دائماً أفضل؟ دائماً؟ ياسلام!!! هل أنت متأكد؟! لِمَ لم تقل لى ذلك ونحن نوقع على أوراق الطلاق؟  
. ألم يكن هذا هو واقعنا؟ .  
. كنا متزوجين قبلها بدقيقة، وكان ذلك هو الواقع أيضاً.  
. لكن الطلاق تمّ، فأصبح هو الواقع.  
. أهكذا يكون الاستقبال يا جلال؟ .  
لا توجد امرأة تود، أو توافق أن تكون مطلقة من رجل تحبه، لكنها أرادت أن يظل ما بينهما أعلى من أن يشوّه بضربات الزواج العشوائية.  
. لا أنوى غوايتك، كل ما فى الأمر أنى قررت أن أمارس فضيلة الجنون الاختيارى المؤقت، هذه بعض مناطقنا المشتركة.  
. هذا بيتك طول العمر، المفتاح معك، وسيظل معك، أنا ضيفك الليلة.  
. ”سرقوا الصندوق يا جلال، لكن مفتاحه معى”.  
أحس أن رأسه تزداد ثقلاً، ومع ذلك فكلُّ من الإفاقة والرغبة فى النوم يقتريان معاً، ما هذا؟ ما الذى جاء بها من جيزان؟ كان يكلمها كل ليلة دون أن يعرف رقم هاتفها، لم يسألها أبداً عن رقم هاتفها هناك، قرر أنها تعيش فى بلد ليس بها هاتف، ومع ذلك ظل يكلمها يومياً، سمع أن جيزان هى جهنم اليمن التى اقتطعتها السعودية من باب عشم القوى فى الضعيف، ليس فى جهنم هاتف؟ ذهبت ثريا إلى هناك هاربة، وعادت قبل أن يصدر قرار العفو، عادت قبل أن تُختبر، عادت كأنها كانت هنا بالأمس.  
. تصورى طول النهار وأنا أفكر فى السنين التى سرقوها منى.  
. من؟ .  
. أنا “الذين” سرقنتى.  
. . . أنا الذين..! والله زمان، أكمل القصيدة يا رجل.  
. أتكلّم جدّاً.  
قال لها، أو لم يقل لها، لا يذكر، ليس مهماً، قال لها إنه بعد أن ثقلت رأسه نصف نصف، وجد أنه

كل واحد يفكر بطيبته كما يشاء، ربنا طيب، يجب الطيبين، فكر فى نفسه: هل هو “طيب”؟ طيب يعنى ماذا؟ يعنى مغلوب على أمره؟ شعب مصر شعب طيب، ”جاتنا خيبة“!، أنا لست متأكداً من شىء

أنه لا يفهم، وأن عينيها تخترقان من يفترب منها حتى تُرعبه، وأنه لا يوجد من يتحمل ذلك

عناد يضرب كفاً على كفه وهو يركى عن أطفال المسلمين، وعن أطفال الصرب أيضاً

يقول إنه تغير مرتما، ذهب وهو يتصور أنه لى تكون مسلماً، أو ابن مسلم لأبداً أن تكون أسمر البشرة، فأخر

الفهم، ذابل العينين، متكلًا على ما تتصور أنه الله في بله

قريب منه، قاب قوسين أو أدنى، حلوة هذه، وأنه يمكن أن يراه إذا توقف عن التفكير، إن التفكير هو الذى يحول دونهما، هو هو دون غيره، هو نفسه.

. عندى لك مفاجأة.

قالت ذلك وهى تزداد قربا بعد أن كفت عن تمشيط شعره.

. خير اللهم اجعله خيرا.

. لقد وجدته.

لماذا هكذا الآن؟ لماذا تزداد قربا هكذا؟ كيف عرفت؟ إذن هو قال لها، لا لم يقل لها، هى هى ثريا

جدا، تقرؤه دون استئذان، تقرؤه حتى دون أن تفتح الصفحة الأولى، وبعد؟ وبعد يا ثريا؟ .

. مبروك.

. مبروك ماذا يا جلال؟

. مبروك ما وجدت.

- تسخر يا جلال !؟

- آسف.

. وتتأسف أيضا؟ لماذا تتبعد هكذا؟ .

- أنا فرحان أنك هنا.

- وأنا، على فكرة: محمود رجع من البوسنة، وهو يبلغك السلام.

ما علاقة هذا بذاك؟ لماذا ذهب أخيها محمود إلى هناك؟ وما علاقة جيزان بسوق السلاح بالبوسنة؟

يقولون أنه فى كل مكان فلماذا كل هذا التثقل؟.

أنا أستطيع أن أقول- أيضا - إننى وجدته اليوم عند مزلقان "أبو النمرس"، ثم قابلته فى قهوة عم

صابر فى عزبة البكباشى، وكنت أكلمه عند عم إدريس فى بار التوفيقية، كيف عرفت يا ثريا.....؟

(يبدو أنه قال الجملة الأخيرة بصوت عالٍ)

. عرفت ماذا؟

- أننى كنت هناك؟ وأنه كان هناك كذلك؟.

سكنت وكأنه لم يقل شيئا، كانت تريد أن تحتج على أمر غير ما قال، سكتت وهى تنتظر إليه بحنان

جديد، يبدو أنه كان واضحا حنانها، حتى أنه خاف، فنسى قرارها أنها سوف تمضى الليلة عنده، - فى

بيتهما - فقال بسخف لم يتبينه إلا متأخرا:

. أوصلك، لا بد أن أوصلك....، يبدو أننى لن.....

. تطردنى أم ماذا يا جلال؟ أنت فى حال...، أنت لا تستطيع أن توصلنى إلى المطبخ، هيا اخلع

ملابسك وتمدد وسأعطيك مثل زمان، ولا تحمل همى، سوف أدبر أمورى.

لا توجد إلا حجرة واحدة، ألقى بنفسه على الأريكة دون السرير وكأنه وقع من شاهق، لم يخلع

ملابسه، استغرق فى النوم للتو، راحت تخلع له حذاءه برفق، وكذلك جوربه، تأففت قليلا من الرائحة، لم

يمنعها ذلك من أن تلمس على الشعر المتوسط الكثافة أسفل ساقه التى ظهرت من تحت الغطاء بعدما

نقلب وهو يعدل نفسه، ودّت لو تقبلها، لم تفعل، ذهب ناحية جبينه ولثمته لثما خفيفا، لن يستيقظ حتى

لو عضته، أحكمت الغطاء.

تحسست السرير تتأكد من موضعها، موضعها القديم، لم تخلع ملابسها هى الأخرى. وضعت

ركبتيها فى ذقنها، جذبت الملاء وغطت رأسها.

-2-

كانت الشمس قد ملأت الحجرة، وبدا الوقت متأخرا، حاول أن يتذكر بعض معالم ليلة أمس، هلنت

عليه الأحداث متلاحقة، التفت إلى السرير فوجده مرتبا تماما إلا الغطاء الخفيف، كان الغطاء على

الأريكة، استبعد أن يكون حلما.

تراجع الصداق بشكل متذبذب.

سوفه ينشر إعلانا فى الصحف يقول: "مدرّس لغات وكمبيوتر"، و"قرآن"! خصوصى جدا، ليست له علاقة بالامتحانات، أو بالآخرة، ومع ذلك يضمن التفوق فيهما، يعلم الصبيان والبنات الحياة واللغات والتواصل، فيجدون الطريق معا إليه، كل واحد وشطارته

سوفه يكتب رقم الماتمه خطأ حتى لا يعثروا عليه ليحاكموه بتهمة مزاوله التنوير بدون ترخيص، بسيطة، أو ربما يحاكمونه بتهمة "الجرأة على المجهول"، أو تهمة "حسن النية" أو حتى تهمة "المحاولة فى الممنوع"، وقد يحكمون عليه بالتفريق

جريمته الأشنع هى محاولة "الحفاظ على التفكير السليم" ولمن؟ للأطفال؟ أى خطر يمكن أن يهدد كل الأنظمة الجبارة لو ظل الأطفال

السريبر مرتب بطريقتها، فرك عينيه مرة ثانية، فى المطبخ وجد اللبن مغليا والأطباق التى كانت فى الحوض انتقلت إلى الرشافة، بعد غسلها، الحوض يلمع من النظافة، هى هى لم تتغير، هى لا تريد بذلك . ولا بغيره . أن ترجع، ولا هو ...، ثريا رقيقة دائما، هى أرق من رقتها، خيل إليه أنه ذهب إلى الحمام فى جوف الليل، لعله نقياً أو ربما....، وجد الحمام نظيفا تماما، حتى لو كان قد تقيأ فقد نظفت الحمام مثلما نظفت المطبخ قبل أن تنصرف، أخذ يسترجع حديثهما أمس، تذكر بصعوبة أنها حدثته عن أخيها محمود العائد من البوسنة، "على عزت بيجوفتش"، شئ ما يبدو قريبا بيتعد، أو بعيدا يقترب، كيف يبدأ؟ هى التى جاءت، بنفسها، هو مازال يحبها، أى حب هذا الذى يتأكد بالانفصال ويختلّ بالقرب؟ هل يقول لها عن مشروعه؟ هل تساعدّه؟ هل تضحك منه؟ إذا كان لأحد أن ينتبه إلى جنونه أو شطحه، ويقبله، فهو ثريا.

-3-

مدرسة البدرشين الإعدادية للبنات.

سخيف أن يذهب إليها هناك، هم يعرفون أنهما كانا متزوجين، وليس عيبا أن يذهب إليها فى

المدرسة، هو لا يعرف عنوان بيتها الجديد، لم يسألها.

ما الذى حدث بالضبط؟ لماذا جاءت؟ ولماذا نامت عنده؟ ولماذا ذهبت؟ وماذا قالت؟ الذى حصل، سوف يذهب ويعرض فكرته، ماذا ستقول عنه؟ لقد عادت، باتت فى سريره، سريرهما، لم تطلب شيئا، هى لا تطلب شيئا، ولم تلوح، هى لا تلوح، هل يذهب إليها الآن ليطلب زبائن لعمله الجديد الذى لم يبدأ بعد؟ طبعا لا، أى تلميذ هذا من البدرشين، يمكن أن يسمح والده أن يسلمه لمدرس هاوٍ، قطاع خاص، يريد أن يعدّل الكون عن طريق إحياء اللغة التى ينظم بها دماغ العيال ليفكروا بالأصول، مدرس ليست له علاقة بالامتحانات؟ ولا بالغش، أى شطح خائب؟ ومع ذلك سوف يذهب، وسوف يلقاها فى المدرسة، وسوف يعرض عليها فكرته، لن يعرضها بصفتها مدرسة لغة عربية، إن ما خطر بباله ليست له علاقة باللغة العربية، إنها شئ أشبه باللغة الأم قبل أن تتشكل فيما أضعها..، اللغة الأم ليست لغة الأم سوف يعرض عليها الفكرة بصفتها ثريا، قارئة دماغه، ومالكة مفتاحه، إلا قليلا.

إنه حين قرر أن يضىء شمعة واحدة أمس بدلا من أن يطفىء 41، كان يعنى ما يفعل، شعر بقوة حقيقية تسمح له أن يفعل كل ما كان يتردد فى فعله، يذهب، ويعرض، ويرفض، ويذهب ثانية، وهكذا، لن يهدم، ولن يرجع، ولن يكف لا عن السياسة، ولا عن الأمل، سوف يغير الكون من القاعدة هذه المرة، الشئ الذى يبدو بلا حل هو مسألة ثريا هذه، ليست ثريا نفسها ولكن "مسألة ثريا"، هو لا يعرف أبعاد المسألة بالتفصيل، لكنه متأكد أنها مسألة أبعد حلا عن أى تصور جاهز، إلا أن لها حلا حتما، لا يوجد "حل نهائى" قريب، وأسألوا ياسر عرفات، حال الدنيا بأسرها تجسد فى المسألة الفلسطينية، كلنا هى، قال له: "طيب والشيشان"، رد عليه: "الله يخيك، كله مثل كله".

حين اقترب من الشارع الذى تقع فيه المدرسة، وهى ليست فى وسط البلدة على أية حال، بحث عن الجُمَل التى أعدّها ليشرح بها فكرته لثريا قبل أن يطلب مساعدتها، يقفز إليه السؤال إياه بلا مناسبة وبدلا من أن يكرره كما اعتاد أجاب عليه مباشرة، "نعم موجود"، ثم أضاف "يعنى، يقينا فى الأغلب"، هذا صباح لن يمر: "يقينا فى الأغلب"؟! "!!! من أين يأتى اليقين إذا كان فى الأغلب؟ ثم ما هذه الـ "يعنى"؟ قال اسمه للبواب، وأنه جاء لمقابلة الأستاذة ثريا عبد السلام المشد، فبدا من ابتسامه البواب وترحيبه أنه يعرفه، ومع ذلك فضّل جلال أن ينتظر على الأريكة بجوار الباب حتى يعطيها خيرا، سمع جرس الحصة فاستبشر، حتى لو كانت عندها حصة فقد انتهت، عاد البواب بسرعة وسمح له بالدخول إلى حجرة المدرسات، كانت بها مدرّستان، زميلتاها، واحدة تذكر أنه رآها مرة من قبل، لعل اسمها خديجة مثلا، هى كذلك، هو الذى أسماها بمزاجه، بدينة قصيرة، تبدو أمّا منذ كانت فى السابعة، والأخرى سمراء فارعة محجبة، دمها خفيف (هو قرر ذلك)، انصرفتا فى سماح.

قرأ ما يدور بخلد خديجة: "الصلح خير"، ليكن، خيرا، اللهم اجعله خيرا، كل واحد يفكر بطيبته كما يشاء، ربنا طيب، يحب الطيبين، فكر فى نفسه: هل هو "طيب"؟ طيب يعنى ماذا؟ يعنى مغلوب على

يشعر الآن أنه أكثر ثقة  
بنفسه بقدر ما هو أكثر مجازا،  
هو مجاز الآن لكنه قادر على  
المدى الطويل، هكذا أراهم  
نفسه، لقد أخذ الزمن فى  
جانبه فى محاولة التجاوز  
العشبية

تتدفق علاقته بالحياة كلما  
ومعى ألمه أكثر، هو يعيش  
هذا الألم كلما بلغته ألم  
الناس

أحيانا يتصور أنه يتألم مع  
الناس، للناس، أكثر منهم،  
فيخجل من كذبته على نفسه،  
من وصاية مواطنيه على  
مشاعر الناس يقينا بدوره  
الغامض الجديد، هل له دور  
أصلا، ممما كان تامضا؟ لا  
أحد يعلم

اليأس والسخط والإنكار نعو  
من عند الله يرسلها إلى  
عباده الأشقياء ليعبدوه حتى  
من خلال إنكارهم له

أمره؟ شعب مصر شعب طيب، "جاتنا خيبة" !، أنا لست متأكدا من شيء، لم يبق إلاي وثريا.

. خير يا جلال؟ .

. خير إن شاء الله.

. أهلا بك.

. جئت أعتذر عما حدث بالأمس.

. وماذا حدث بالأمس؟ يا شيخ !! كل سنة وأنت طيب.

. هل أنا طيب صحيح يا ثريا؟

. طبعاً، هل تشك في ذلك؟

. طبعاً.

. معك حق، هل تريد أي شيء آخر؟

. لا أبداً، أذكريني بين الحين والحين.

. ما هذا؟ ماذا تقول؟ أنت تعرف، كيف تقول ذلك؟

. وترجى واحداً أطيب مني.

. أوامرك.

. آسف، بلّغى سلامى إلى خديجة زميلتك التى خرجت الآن، أليس هذا هو اسمها؟

. ما زلت أنت هو أنت يا جلال، لا فائدة.

. بل إن الفائدة دائماً بين أيدينا ونحن الذين لا نمد لها يدنا.

. ستظل طول عمرك تحلم يا جلال.

. سوف أبدأ من جديد.

. أنت لا تكفّ عن البدايات.

. البداية هذه المرة مختلفة.

. كل بداياتك كانت مختلفة.

. سوف ترى، هذه المرة شيء آخر.

. أنا أراك دائماً كما تريدنى أن أراك، وهذه مصيبة فى حد ذاتها.

راح يدعى أنه لا يفهم، وأن عينيها تخترقان من يقترب منها حتى ثرعبه، وأنه لا يوجد من يتحمل

ذلك، وقال لنفسه: إن هذا هو الذى هرب منه تماماً، على الرغم من أنه فى أشد الحاجة إليه، وقال لها

إنها هكذا ستعيش طول عمرها وحيدة تتفرج.

. أنت مالك؟ .

. أريد لك الخير.

. خلّ عنك.

. تحتاجين من يقف بجوارك، هذا يستلزم أن تغمضى عينيك، ولو قليلاً.

. ربنا موجود.

. صحيح!؟ .

. غصبا عنك.

قرر ألا يفتح موضوعاً لا يُغلق أبداً، فانحرف بالحديث فجأة:

. متى عاد؟ .

– من؟ .

– محمود، أخوك؟ .

..... عاد يضرب كفاً على كف وهو يحكى عن أطفال المسلمين، وعن أطفال الصرب أيضاً، تصور؟

يقول إنه تغير مرغماً، ذهب وهو يتصور أنه لى تكون مسلماً، أو ابن مسلم لا بد أن تكون أسمر البشرة،

فاغر الفم، ذابل العينين، منكلاً على ما تتصور أنه الله فى بله، وحين ذهب لم يصدق أنهم مسلمون،

يحترو عقلماً ويرفض حريرتها،  
يتصور أحياناً – ربما حتى يظل  
بعيداً – أنها تنازلت عن  
أدوتتها لمن لا يهّمه الأمر،  
هل تنازلت عنها فعلاً؟

حين يقطع الإنسان نفسه  
عنهم، عنه، تتم عملية خفاء  
بشعة، عمليات بتر سرى،  
استئصال، يتم بها فض  
الاشتبك بين الناس وبين  
الكون: إما بالتسليم للذين  
نصبوا أنفسهم وكلاء عنه  
دون إذن منه، وإما بالإنكار

مشكلة الوجود هى أن اللغاة  
له تعد تستعمل لتنظيم  
الدماغ، بل أصبحت مثل  
الملاط اللزج تسكّ المساء،  
وتلغى الأعماق

القرآن لغة ونبض، وإيقاع،  
ومعنى تامر، أنا هدفى تنظيم  
الدماغ، بالرجوع إلى الأصل،  
وإذا انتظم الدماغ بنبض  
اللغة الصحيحة، فلا تنعج هما

أريد أن أسهم فى إرساء  
قواعد البرنية الأساسية لأدمغة  
البشر، ولا يوجد أنسب من  
أدمغة الأطفال.

هو يزعم لنفسه دائما أنه  
يستطيع أن يعبء طوبه  
الأرض، على شرط ألا يقترب، لا  
أعرفه أين يذهب حتى لهم  
حين أقترب، حين أتحمس من  
أحب، حين أصدقته؟

أستطيع أن أحب كل الناس  
فوق ما يتصورون، لكن من  
بعيد لبعيد، هو يعلم أنما  
مثله، وربما جاء إليهما، لأنه على  
يقين من أنها مثله

وحين تأكد، لم يصدق أنهم خواجات، دخل بيوتهم، وحمل أطفالهم، ورأى بعضهم يصلى فى المنزل،  
وشيوخهم يصلون فى المسجد...، ثم إنه، ماذا أقول، ثم إنه لم يكره كل الصرب، "تصور!!".

. أتصور ماذا؟ ماذا تقولين؟ .

. أقول ما حدث.

. وبعد؟ .

. أحب أطفال الصرب مثلما أحب أطفال المسلمين؟

. محمود؟!؟! .

. محمود. عاد ينصحنى أن أفتح أبوابى كلها، وكأنه كان معنا حين أغلقناها.

. نحن لم نغلق شيئا، هى كانت مغلقة خلقه، من الناحيتين.

. ليس تماما. والله زمان، لم نتب بعد عن هذا الكلام الذى يترجع مثل الصدى.

. كل شئ جائز.

. دمك ثقيل. ما علينا، أهلا بك، هل الأمر عاجل إلى هذه الدرجة؟.

. أنت مازلت يا ثريا كما أنت، لا فائدة.

غيرت ثريا الحديث فهى تعلم أنه لن ينتهى، وأنه إذا انتهى لن يوصل إلى شئ، راحت تستفسر منه:

هل قرر أن يقبل السفر إلى الخليج أخيرا؟ وهل هو يريد رأبها؟ مع أن رأبها لن يقدم ولن يؤخر، وأن الذى

فى مخه فى مخه، وحين لم يجب أية إجابة نافعة إلا تأكيده القاطع أنه لن يترك مصر حتى لو شحذ من

كل بيت لقمة، قرر فجأة ألا يفتح الموضوع الذى جاء من أجله، وأن عليه أن ينصرف لأن الوقت طال

وهما وحدهما فى حجرة المدرسين، وعاد يواصل ادّعاءه أنه إنما جاء للاعتذار لا أكثر.

(= لا عليك، يتصورون أنك تعرض مشروعا للصلح.

=قلت لك إننا شعب طيب.

=إننا شعب جبان.)

-4-

ميراث فريد - صف طويل من الكراسيات ذات الـ 64 صفحة، مليئة بالكلام السام، ما ذنبى أنا إن

كنت ابن غريب الأناضولى، وما ذنبى أننى لم أر أبى إلا من كراسيات بالية كلها إنكار وسب ونفى؟ كتابة

مجسمة، كتابة مثل مثل شوك يسقى من مياه الصرف، هل توجد حروف شائكة بكل هذه القسوة، أشعر

بها تخزق عيني، أشعر بلذع الصبار فى حلقى، أشم رائحتها النتنة وأنا أقرأها، لماذا قرأت منها ما قرأت،

مازال تأثيرها نافذا يتجدد، لم أتبين إلا مؤخرا أن هذه الكراسيس هى أبى الذى ولدت من ظهره، لم أحدثك

يا ثريا عما وصلنى منها ولا عنه، ومن أين لى أن أحدثك عنه؟ أنت تعرفينه أكثر منى، كان جاركم،

يخيل إلى أننى لم أره أبدا، كنت فى الثالثة؟ لست أدرى؟ لا أذكر.

(= خزنتها بعيدا عنى فى صندوق قديم، أرجع إليها أحيانا وأنا كاره غضبان، لا أستطيع أن أحرقها،

ولا أستطيع أن أقرأ منها كل مرة سوى صفحة أو بعض صفحة، هى تصدك أولا بأول، تصدك قبل أن

تمزقها.

=كان يمكن أن تخرج منها بشئ.

= خرجت من بعضها، بما تيسر، وكان كافيا لتعاسة خمسين معى.)

هى لم تسأله، وهو لم يخبرها كيف كانت حروفها كالحشايا الملتهبة، لكلماتها مرارة رخوة تثير الغثيان

بقدر ما تدعوك للمنازلة، لم كل هذه القسوة؟، الكراسية الوحيدة المختلفة التى احتفظت بها خارج الصندوق

كانت تلك التى سجل فيها علاقته بأمى، وهى هى التى سجل فيها موت صديقة له اسمها "صفية"، على

ما أذكر، كان يعتقد أنها انتحرت، فى هذه الكراسية، كدت ألمح محاولات تراجعها، لكن أبدا، مات أو اختفى

أو انتحر، لست متأكدا، لا أعرف متى مات، إن كان قد مات، هل كانت أمى تحبه؟ لا أعلم، كانت لا

ترد على أسئلتى عنه إلا بالدعاء له - ولنا- بالمغفرة، زوج أمى، عم سليمان، هو أبى الحقيقى، هو أكثر

من أبى، هو غير أبى، لا بد أن هناك لفظا أرقى وأجمل من هذا اللفظ "أبى" بعد أن شوهه غريب

أنا لا أمنع نفسي لأحد أبداً،  
أنا أتقن التمثيل خاصة في  
الفراش، أتهرج عليهم، لا  
للتسلية، ولكن سمها دراسة

كانوا يلتمون، كانوا ثواراً  
بحق، ليسوا ثواراً تماماً، مشروع  
ثوار، ففسوا اللعبة في الوقت  
بدل الضائع، بل في الوقت  
الضائع، "قادة بلا شعب،  
وثوار بلا ثورة".

سرق الحكام الجدد العلم من  
أهاليهم بالتلويح بتحقيقه، ثم  
سرقوا منهم الوطن باعتبارهم  
مختلين عقلياً لا يعمل حسابهم،  
ولا يصلحون للاستعانة بهم

أنى أتمتع بالفرجة على بلاهة  
الرجال الذين أخذهم في  
الفراش، أتصور أنني لا يمكن  
أن أتوك نفسي لأى واحد  
منكم، لا أحد منكم يستأهل

الأناضولى، عم سليمان هذا هو الذى كان دائماً ينعنى أن أتمادى فى السخط عليه، أو السخط عامة،  
كان يدعو لأبى بالرحمة، كان رائعا هذا الرجل، أبداً أنا لم أستوعب كل ما كانه عمى سليمان.

-5-

سوف ينشر إعلاننا فى الصحف يقول: "مدرّس لغات وكمبيوتر"، و"قرآن!!" خصوصى جداً، ليست له  
علاقة بالامتحانات، أو بالآخرة، ومع ذلك يضمن التفوق فيهما، يعلم الصبيان والبنات الحياة واللغات  
والتواصل، فيجدون الطريق معا إليه، كل واحد وشطارته".

ابتسم وهو يتصور أنهم سوف يقبضون عليه بمجرد نشر هذا الإعلان، سوف يكتب رقم الهاتف خطأ  
حتى لا يعثروا عليه ليحاكموه بتهمة مزاوله التتوير بدون ترخيص، بسيطة، أو ربما يحاكمونه بتهمة  
"الجرأة على المجهول"، أو تهمة "حسن النية" أو حتى تهمة "المحاولة فى الممنوع"، وقد يحكمون عليه  
بالتفريق، لكنهم حين يفاجأون أنه افترق عن ثريا منذ زمن، سوف يلقفون له تهمة جديدة لا يعرف  
صياغتها، ربما تهمة "البلاغ الكاذب"، ألم يتجرأ ويملح ضمنا - فى الإعلان - أنه يمكن إصلاح أدمغة  
البشر عن طريق تعلم نبض اللغة بطريقة أخرى، يحتاج الأمر إلى آلاف الفرص وعشرات القرون حتى  
يثبت لهم أن ما نشره فى الإعلان ليس بلاغا كاذبا، وأن الدنيا بخير، وأن الأطفال هم كما خلقوا، وأنه لا  
يريد أن يعلمهم إلا ما هم، ربما حين يكتشفون عجزهم عن الحكم عليه بالتفريق، يحكمون عليه بالتزويج،  
هذا حكم أقسى، جريمته الأشنع هى محاولة "الحفاظ على التفكير السليم" ولمن؟ للأطفال؟ أى خطر  
يمكن أن يهدد كل الأنظمة الجبارة لو ظل الأطفال يفكرون كما خلقوا؟

أثناء مرور الميكروباص مقابل مزلقان "أبو النمرس" أطل من الشباك باحثا عن عبد المعطى، فلم  
يلمح إلا الحاجّة وردة أم البننت، كانت تجلس أمام عشتها المتهالكة توزع فتوتها الأنثوية على عمال  
طيبين، مرّ الميكروباص سريعا لكن الصورة بقيت أطول.

يكتشف فى نفسه هذه الأيام تحولا ما، كان قديما كلما قرأ خيرا فى الصحف، كذبة حكومية، ظلما  
سلطويا، حادث تصادم، امتلا غمًا وغيظا وثورة وإصرارا على التحريض والإعداد للتغيير، يشعر الآن أنه  
أكثر ثقة بنفسه بقدر ما هو أكثر عجزا، هو عاجز الآن لكنه قادر على المدى الطويل، هكذا أراح نفسه،  
لقد أخذ الزمن فى جانبه فى محاولة التجاوز العبيثية، فابتسم.

أصبح يتابع المصائب والآلام، بثقة الوثائق فى النصر، فى النهاية. بيتسم ثانية، ليست فرحة، لكنه  
ابتسام ملئ بنبض الألم الحى، والثقة فى أمر ما، ما الذى حدث له بالضبط؟ لو رآه أحدهم وهو بيتسم  
هكذا لظن به الظنون، كيف يثبت لهم أنه بيتسم؛ لأنه "لم يستسلم، ولن يستسلم"، لأنه "متألم ومحتلم"  
معا"، هذا كل ما فى الأمر.  
"ابق قابلتى".

تتدفق علاقته بالحياة كلما وعى ألمه أكثر، هو يعيش هذا الألم كلما بلغته آلام الناس، أحيانا يتصور  
أنه يتألم مع الناس، للناس، أكثر منهم، فيخجل من كذبه على نفسه، من وصاية عواطفه على مشاعر  
الناس يقينا بدوره الغامض الجديد، هل له دور أصلا، مهما كان غامضا؟ لا أحد يعلم، أخشى ما يخشاه  
هو ألا يكون إلا والده بخدعة أكبر وأخفى، لماذا غلبت كراسات أبيه على حنان أمه، وحكمة زوج أمه؟  
عم سليمان هو والده الذى لم يلد، لماذا أصرت أمه منذ البداية على أن يناديه "عمى" وليس والدى؟ هذا  
أطيب، هذا أصدق، أفاده هذا الموقف بلا حدود، ليس يدرى كيف، لماذا احتفظت أمه بكراسات والده  
هذه؟ إنها لا تقرأ ولا تكتب! هى لم تكن تعرف السموم التى تحتويها، الكراسية التى أزجته أكثر جنبها،  
يعود إليها بين الحين والحين، يبدو أن أمه أحببت أباه، لسبب ما، بشكل ما، هل تزوجته شفقة أم حبا؟  
هى قريبته من بعيد، لم تعلن تلك القرابة أبدا، كانت تذهب مرة كل أسبوع تتظف الشقة، وتأخذ الغيارات  
المتسخة للغسيل، وتطبخ بعض النواشف التى تكفى أسبوعا، ليست شغالة، ثم تمضى، حكّت له مرة،  
وهى نادرا ما كانت تحكى، أنها قابلت عنده واحدة اسمها صافية، قالت إنها كانت فتاة طيبة، ثم قابلتها بعد  
ذلك، شكّت، ثم فهمت، ولم تعلق، اختفت صافية عاما إلا قليلا، ثم عادت، أمه لم تكرهها، ثم إنها علمت  
بموتها مصادفة واستنتاجا، كان حزنه شديدا، وحين طلب منها الزواج بعد موت صافية لم تتردد فى

القبول، عملها سرا، وفضتها سرا من جانب واحد دون استئذان، لم يتردد وأنا بعد في أحشائها أن يفعلها، لم تلمه أبدا ولم تتدم على زوجها منه، رفضت طول عمرها أن تحكى عنه إلا النذر اليسير، مثل حكاية صافية، كانت تجيب على أسئلة جلال بكلام غامض، ثم بالصمت، ثم بالابتسام، ثم بالدعاء له بالرحمة ولجلال بالسلامة، وأن يوقف الله لجلال أولاد الحلال استجابة لدعواتها، كان جلال قد عثر على الكراسات وهو في سنة ثانية اعدادى، امتنع وجهها وهى توافق على تسليمها له، ثم راحت تدعو أن يحفظه الله من كل شر، لم تكن تقصد أن ما بالكراسات شر، لم تكن تعرف، وجهها امتنع على أية حال. أربعة عقود وهو يستمع إلى صوت أبيه الذى لم يره أبدا، وهو يحاول أن يتعرف على من وهب أباه عمره لينفيه، هذه الكراسات كلها، أغلبها، كانت تلف وتدور حول نفي كل الوجود إلا كاتبها، إلا أبيه، أبيه الذى اختفى بدوره كأنه ينفذ حكما صدر عليه بالإعدام أو الموت عطشا، هو الذى أصدره على نفسه من وراء ظهره، اختفى وهو يأبى إلا أن يبقى داخل ابنه هكذا.

ليس متأكدا.

-6-

بعد ظهر ذلك اليوم الخريفى المعتدل، الساعة السادسة إلا ربعا، تذكر صديقة تعرف بها مصادفة حين قابلها مع أبيها الذى كان يبحث عن من يعرف أباه، وهى صديقة ذكية جادة قريبة مُلغزة حادة، شاركها بعض النشاطات السياسية المتقطعة، طرق بابها، طالبت فترة الانتظار أطول مما توقع، هل يكون عندها أحد منهم؟ تمنى أن لا، هو يريد لها وحدها الآن، "منال" مازالت تمثل له الشخص المناسب الذى يمكن أن ينفذه من نوبة النفاول التى أصابته هكذا فى عز ما يبدها عكسها، يشعر أن هذا النفاول أصبح عبئا عليه، عرفها أيام الكفاح والأمل، لم يقتريا كثيرا، هما أقرب دائما مما يحسبان.

اليأس والسخط والإنكار نعم من عند الله يرسلها إلى عباده الأشقياء ليعبدوه حتى من خلال إنكارهم له، ذهب إلى منال يتزود ببعض الهواء الحار الملتهب الذى تزفره مع كل كلمة ورأى وتعلق وتعقيب، يحبها ويأنتس بها، يحترم عقلها ويرفض حرقتها، يتصور أحيانا - ربما حتى يظل بعيدا - أنها تنازلت عن أنوثتها لمن لا يهمه الأمر، هل تنازلت عنها فعلا؟ لماذا إذن تتمسك بظاهر أهدابها بكل عنف، تبدو وكأنها حلت مشكلتها الظاهرة بتغيير الالفة مثل الكثيرين والكثيرات، اللافعات الرائجة هذه الأيام هى "حقوق الإنسان" و"ختان البنات"، هى شخصيا لم تختن، ليست هذه هى القضية، الختان الحقيقى، بل الخضاء الحقيقى هو ما وجده فى كراسات أبيه، حين يقطع الإنسان نفسه عنهم، عنه، تتم عملية خضاء بشعة، عمليات بتر سرى، استئصال، يتم بها فض الاشتباك بين الناس وبين الكون: إما بالتسليم للذين نصبوا أنفسهم وكلاء عنه دون إذن منه، وإما بالإنكار، يادى المصيبة العمومية!! هل هذا وقته؟ قرر أن يجدها فى الداخل، هو فى أشد الحاجة إلى أن يجدها، سوف تفتح له مهما تأخرت، فتحت منال الباب وهى تفرك عينيها، ألم يرجح أنها قد طالبت منها قبلولتها، أو لعلها زودتها أمس، فوجئت به، كانت الاختلافات بينهما قد تمادت حتى بات أى لقاء بينهما لا يعد بأى شئ، أى أنه يعد بكل شئ: لهذا هو جاء إليها بالذات؟

فكرت منال بالأمس أن تهاتفه بمناسبة عيد ميلاده، لكنها لم تفعل، اعتادت منه فى هذه المناسبة أن يقول كلاما سخييا، معادا، لم تعتقد أبدا أنه يعنيه، هى تعرف أنه يريد منهم أن يروه، وأن يعلنوا ذلك له؛ ليدعى الاستغناء عنهم.....، ألعاب غبية لا يهدم من تكرارها.

. ادخل يا جلال، مالك واقف مثل التائه هكذا.

..... بلا أهلا ولا سهلا؟

. أهلا وسهلا.

. لا تسألينى لماذا جئت.

. لماذا جئت؟

. قلت لك لا تسألينى.

. سمعت، وهأنذا لا أسألك، ولأنى أعرف أنك لن تجيب، فاعتبرنى لم أسألك.

. شعرت أنني في حاجة إلى من يلممني، ومن ذا يستطيع ذلك إلا واحدة مثلك، أحتاج لسخريتك الجارحة لأفريق.

. نعم؟ نعم؟ لقد توقفنا عن مثل هذا منذ سنوات، ماذا جرى لك؟

. لم يجر شيء، عندى مشروع أريد رأيك فيه.

- مشاريعك لا تنتهي يا جلال، ما الجديد؟

. مشكلة الوجود هي أن اللغات لم تعد تستعمل لتنظيم الدماغ، بل أصبحت مثل الملاط اللزج تسدُّ

المسام، وتلغى الأعماق.

. الله الله !!، لنفرض، مع أنني لم أفهم تماما، وأنت مالك؟

. أنا وجدت الطريق لتعديل ذلك.

. يا صلاة النبي !!.

. ماتت اللغة، وأريد أن أنقذ الأطفال، أريد أن ألحقهم قبل أن يسرقوهم.

(المجنون، لا يكف عن الحلم، لم لا يعقل مثلنا، عنده كل ما يؤهله للانضمام إلى "الكيتش"، الجديد،

الله يخرب بيتك يا جلال يابن غريب، طالع لأبيك والنعمة)

كتمت ذلك في نفسها وهي تبتسم مؤنسة، ولم تقل إلا:

. وما دخلى أنا؟

. دخلك أن تقولى لى، كالعادة، إننى مجنون.

. مجنون ابن مجنون، ثم ماذا؟

. ثم لا أهتم بما تقولين، وأسألك إذا كان أحد معارفك، أو معارفنا عنده أطفال يريد أن ينقذهم؟

. ينقذهم؟ بك أنت؟ سيادتك سوف تنقذ أطفال الناس؟ ألم تكفك خيبتك - خيبتنا. مع الكبار؟ ألم

تفوق من كثرة الصك على قفاك؟ لم يتركنا ولا رئيس منهم إلا وقد ترك بصمات كفه على أفقيتنا، ماذا

جرى لك يابن العبيطة، غريب؟ إعقل ربنا يهديك.

كادت يده تمتد، تتحسس قفاه، عبد الناصر، السادات، ويمتد الصك بالقصور الذاتى، هذاصحيح، هو

لا يشعر الآن بآثار الصك على قفاه، لعله تعود، هو على يقين من أنه ما زال يُصك إلى الآن، ولكن ليس

بالضرورة علانية على قفاه، لماذا لا يصدِّقه أحد، حتى منال لا تريد أن تشاركه، حتى لو كان مجنونا

فهو جنون سرى طريف، ليس منصوفا على تجريمه فى قانون العقوبات أو نقابة الأطباء، مازال يتصور

أن عنده ما يفيد، أنه قادر على أن يبدأ من جديد، يبدأ من الأول، من الأطفال،

أكمل حديثه وكأنها تعرف ما دار بذهنه:

-العبد لله مدرس أخص، وأصبر، يضمن للعيال النجاح والتفوق فى اللغات والكمبيوتر، و..

والقرآن!!.

. طول عمرك طاقق، ما هذا الذى تقول؟

. اعتبريها مسألة أكل عيش، لم يعد لى عيش فى الصحافة، لاالصفراء، ولا الحمراء، ولا الخضراء،

كلهم ضاقوا بى.

. تترك الصحافة؟ هل تستطيع؟

. قلت لك هى التى تركتتى، لم أعد أصلح لها.

.. ثم ما هى حكاية القرآن؟ مالك أنت وما للقرآن؟ إفرض أن الطفل الذى ستدرس له ليس مسلما.

. هل أنا قلت الإسلام؟ القرآن لغة ونبض، وإيقاع، وعيٌّ غامر، أنا هدفى تنظيم الدماغ، بالرجوع إلى

الأصل، وإذا انتظم الدماغ بنبض اللغة الصحيحة، فلا تنعى هما.

. تنظيم ماذا يا عيونى؟

. الدماغ.

. نحن فشلنا فى تنظيم الأسرة، وأنت تحلم بتنظيم الدماغ، "جتك نبيلة".

راح يشرح لها فكرته الأساسية كأنه لم يسمع اعتراضها أو سبابها، راح يعدد لها ما طرأ على اللغة من

فساد، وبالتالي على الدماغ من تشويش، وأن الحل هو التمسك بالأصول النقية وتنشيط اللغة الحية، اللغة الأصل، وأنه متى نجحنا في ذلك، فإن الدماغ، يعنى المخ، سينتظم حديثا عريفا.

. حلوة "حديثا عريفا" هذه.

. أخيرا فهمتني.

. أنا أضحك عليك، لا توهم نفسك أنك مفهوم، أنت تصعبها لتبدوا مفكرا، قال: "حديثا عريفا" قال !! ؟

. أنا بسيط جدا، وأنت تعرفين.

راحت بدورها، تحاول إقناعه أنه مادام يتقن ثلاث لغات، فإن "المنظمة" فى حاجة إلى مثله، حتى إذا كان هو لا يؤمن بمبادئها كما يدعى، حتى لو اختلف مع إدارتها، فما عليه إلا أن يعمل مترجما محترفا دون الانتماء لها، وسوف يكفيه الدخل، بدلا من هذا الهبل الذى يحكيه.

. المسألة ليست مسألة دخل، أنا مستعد أن أترجم لكم بالقطعة، لكن فى نفس الوقت أريد أن أسهم فى

إرساء قواعد البنية الأساسية لأدمغة البشر، ولا يوجد أنسب من أدمغة الأطفال.

. جلال غريب الأناضولى، يُعدُّ أطفال العالم لبناء المستقبل بدروس خصوصية فى اللغات والهبل!! يا

صلاة النبى. أنت هو أنت، أنت لا تتعلم أبدا، لاتريد أن تهمد.

. بل مصيبتى أننى أتعلم جدا، كل ما فى الأمر أننى لا أتخلى عن وجهتى، أنا- فقط - أغير الطريق

إليها.

- الله يخرّب بيتك، ألن تكف أبدا؟

. اكتشفتُ يا منال أنه لا حل إلا إذا زوّدنا أطفالنا، بلغة سليمة، إلى ما لا نعرف.

. يا خبر اسود، ماذا حل بك يا جلال؟ ميتافيزيكا جديدة، ستعطى دروسا للأطفال فى الميتافيزيكا؟ ..

. أنا أتكلم جدا.

. أعرفك، حتى وأنت تمزح تتكلم جدا، الله يخيبك.

. هل تعدينى.

. بماذا؟

. إذا وجدتِ طفلا صالحا لمشروعى، أن توصى أباه أن يجربني، مساعدة أخوية.

. أساعدك أن تتفك أفكارك لأطفال معارفى وصديقاتى؟ أنت تتنفس أفكارك يا جلال، أنت تخط

الأوراق، والله لو كنت أمّا لأحد هؤلاء الأطفال وأخبرنى طفلى بما يصله منك لأبلغت عنك الأزهر،

والمباحث، والبابا شنوده، وكوفى عنان، معا، اعقل يا جلال ربنا يهديك، لماذا لا يتوب الله عليك من

وسواس السياسة؟

- هذه ليست سياسة.

- لا يا شيخ؟

- مازلت مثل زمان، تماما مثل زمان، لماذا لا تكون مثلنا، وخلص.

. مثل من بالضبط؟

. مثلنا يا أخى.

. قولى لى مثل من؟ ماذا تفعلون الآن؟ ماذا تفعلين الآن؟

راحت تحكى له بحماس ليس له مبرر ما سبق أن حكته له قبل ذلك كلما التقيا، وهو لا يكف عن

إعادة السؤال، وهى لا تكف عن الحكى، راحت تكرر أنها تركز الآن على "حقوق الانسان"، وبالذات

"حقوق المرأة"، وتحديدًا على إنقاذ البنات من جريمة انتهاك أجسادهن بالختان، فراح بدوره يذكرها بموقفها

العذائى من مسألة البكارة، واتهام الرجال بأنهم قد أعطوا رشوة للطبيعة، أو لرينا، حتى يتأمر على البنات

فيخلق لهن تشريحا خاصا يشعرهن بالنقص إزاء الرجال؟

. طبعا، هذا غشاء لا لزوم له أصلا.

. وأنا مالى؟ هل أنا الذى وضعته فى البنات؟

. وأنا أيضا مالى، ماذنبى أنا أن أولد بغشاء وأنت لا؟

. وهل فرقت معك؟

. إخرس يا كلب

اقترحَ عليها أن تتقدم بطلب إلى مجلس الشعب لكي يصدر تشريعا بأن من يُصر على ختان بناته، فعليه أن يزيل لهن غشاء البكارة بالمرة، همّت بأن تقوم لتصفعه، فابتنم وحاول أن يرضيها فزاد على اقتراحه أن تتم مع عملية ختان الصبيان إزالة إحدى الخصيتين للصبيان، فيستوى الجميع في النظام العالمي الجديد.

... طول عمرك كلب ابن كلب.

. ابن كلب نعم، لكنني - شخصيا - أحاول أن أنتسب إلى قطيع البشر المستأنس.

. طالع لأبيك والنعمة، كل ما أرجوه هو أن أتحمّلك كما تحمل أبي أباك.

- لستُ أدري من الذي تحمل الآخر، ياليتني ما عرفت من أبوك، وما علاقتة بأبي الذي لم يكن أبى

أبدا، لا تحكى لى عنه لو سمحت، لا أريد أن أسمع.

واصلت منال وكأنه طلب العكس، راحت تحكى له كيف تعجب والدها حين عثر مصادفة على بطاقة

جلال غريب الأناضولى معها، سألتها ولم تفهم عم يسألها، أصر على معرفة عنوانك، وحين تأكد زاد عجبها، أخبرها والدها أنه متأكد أن "غريب" هذا، إن كان هو هو، لم يتزوج، وأنه ظلّ غامضا بعيدا طول الوقت حتى أنه لم يكن يشارك جادا فى تلك التجربة التى خاضها معا تحت زعم العلاج، لم يحاول والدها أن يذكر أية تفاصيل.

طلب منها أن تسأل جلالا عن حقيقة والده، ربما كان تشابه أسماء، تبادلنا بعض المعلومات بين

الحين والحين حتى تأكد أن جلالا هو ابن أبيه، زاد عجبها وتوقف بعدها عن السؤال.

منال نفسها لا تعرف عن أبيها الكثير، طلق أمها منذ طفولتها، نشأت مع أمها التى تشبهها فى

الشكل، وفى الطبع، لكنها لم تقطع علاقتها بأبيها أبدا، كانت تزوره أحيانا، وتبيت عنده بعض الليالى، ويحكى لها ما تيسر كلما تيسر، تزوج والدها من سيدة قوية، لم تحبها، طنط نجوى، ولا هى كرهتها ولا تكرهها، وإن أحببت ابنها، أباها أنور، كانت قد عرّفت جلالا به ذات مرة أثناء إحدى زيارته، ثم شبه بين والدها وجلال، شبه من بعيد لا تدرك معالمه: تعديل الكون، لا بالسياسة ولا بالحرب، كلاهما يرسم مشاريع خائبة، ويردد أفكارا هاربة، وخلص.

- تذكرنى بأبى يا جلال، خيبتكما بليغة.

. طالع أنا لأبيك، ماذا تعنين؟

- والله صحيح، فيك شبه منه، لست أدري كيف يصر أبى أن أباك لم يتزوج، حتى أنكرك.

- أنكرنى؟ بصفة ماذا؟

- اسأل أمك.

. بطلى سفالة، نحن نتكلم فى الجد.

. الجد هو أن أحضر لك نشرة من نشرات المنظّمة تترجمها فى أسبوع، هذا هو عين الجد، أكل

عيش، لقمة طرية أحسن مما أنت فيه يا حمار.

لوح لها بالموافقة على شرط ألا يكون هذا بديلا عن تقديمه لأى من أصدقائها أو معارفها ممن له

طفل يود أن ينقذه مما آلت إليه حال البشر، مجرد دروس فى اللغة العربية يسرب من خلالها اللغات

الأخرى والكمبيوتر على إيقاع نبض القرآن.

راحت تضحك دون سخرية، وبدا أنها تشك - بحب حقيقى - فى سلامة عقله، ثم ضحكت عاليا وهى

تقول:

- ... هنا ال . BBC لغات حية، وقرأان، تم، تررم، تم.

- دمك ثقيل، لماذا لا تأخذين الأمر بجديّة؟

. قل لنفسك، تريدنى أن أورد لك تلاميذ تجرّب فيهم مشروعك السرى الجديد؟ حاضر. مقابل ماذا؟

أفعل لك كل هذا مقابل ماذا؟

. أعرف مقابلا يمكن أن يرضيك.

. قل لي عليه لأتحمس.

. سوف تتفرجين علىّ، وستسخرين، ثم سوف تفرحين بفشلى.

. وما ذنب الأطفال الذين سوف أعرضهم لجنونك؟

- وهل أصلح الدنيا عبر التاريخ غير المجانين.

. لم تتغير يا جلال لدرجة أننى لست نادمة على أننى أحببتك يوما.

. ومازلت تحبيننى.

. يعنى، حب بالريموت كونترول .

. يا منال يا ست الكل، أنتم تتفرجون من بعيد لبعيد

. أنت لا تصلح حتى للفرجة التى أتمتع بها معهم.

هو يزعم لنفسه دائما أنه يستطيع أن يحب طوب الأرض، على شرط ألا يقترب، لا أعرف أين يذهب

حبي لهم حين أقترب، حين أتحمس من أحب، حين أصدقهم؟ أستطيع أن أحب كل الناس فوق ما

يتصورون، لكن من بعيد لبعيد، هو يعلم أنها مثله، وربما جاء إليها، لأنه على يقين من أنها مثله، هو

واثق -مثلا- من متانة حواجز الثلج، متانة غير قابلة للاختراق، قالت وكأنها كانت تسمعه:

. بالمناسبة، كيف حال ثريا؟ هل مازالت تراسلك؟

. تراسلنى؟ من أين؟ لقد عادت من السعودية، فسخت عقدها وعادت، ولو عرفت أين كانت تبيت

ليلة أمس؟ (قال الجملة الأخيرة بصوت هامس لم يصل منال)، زرتها هذا الصباح فى مدرستها

بالبدرشين.

. هل سترجعان؟

.... ذهبت إليها أبحث عن تلاميذ لمشروعى الجديد. عدلت فى آخر لحظة، لم أجرؤ أن أفاتها

أصلا كما فعلت معك حالا، تصورى أنك أقرب، برغم ألواح الثلج بيننا.

... لكنها بخير.

. مادامت بعيدة عنى فهى بخير.

. لم أر فى حياتى حبا مثل حبها لك.

. وأنت؟ من تحبين الآن؟

. أحب من يقدر علىّ، من يدفع مهرى؟

. أنت لا تحتاجين لمهر ولا لعقد حتى تحبى.

. بطل يا ابن الكلب.

. والله أريد لك الخير، أريدك أن تدخلنى الدنيا من بابها البسيط.

. إشبع بها أنت، إياك أن تصدق أنك دخلت الدنيا أصلا، لا من بابها البسيط ولا من بابها العريض،

أنت لا تكف عن طرق بابها، لا أكثر، وحين لم تفتح لك رحمت تجرب حظك مع الآخرة من باب الحيلة،

أنت لم تحصّل لا هذا ولا ذلك، ولن تتعلم أبدا.

. إيش عرفك؟

. قلت لك، تذكرنى بأبى.

. من السعيد الأبله الذى ترافقيه هذه الأيام يا منال؟

. ماذا تريد أن تقول يا نذل، أنا لا أمنح نفسى لأحد أبدا، أنا أتقن التمثيل خاصة فى الفراش، أتفرج

عليهم، لا للتسلية، ولكن سمّها دراسة، لم أجد حتى الآن من يفسنى، صديقى الآن صاحب معرض

سيارات، يحب النقود والجنس والشرب والكلام الرشيق، تصور؟ ابن طبيب يعرفه والدى، أبى هو الذى

عرفنى به حين كنت معه مصادفة، وهو يفكر فى استبدال سيارته القديمة، أبى يتكلم عن أبيه بتوقير

شديد، فإذا ذكر ابنه هذا صاحب المعرض مصمص شفثيه وسكت، لم أرفضه ولم أتحفظ فى الاقتراب

منه برغم ما وصلنى من أبى، اختلقت الأسباب لمعاودة زيارته؛ لأستفسر عن تفاصيل خائبة، غمزت

.رينا يتم بخير.

.يتم ماذا يا أهبل؟ إنه متزوج ويعول، ولولا هذا ما وافقت.

راحت تحكى له كيف أن زوجة صديقها الجديد هذه ألمانية محببة، امرأة شاهقة البياض؛ وشاهقة الجمال أيضا، حين عرّفها بها زوجها، بكل بجاحة، فهمت من نظراتها أنها تعرف، وربما تبارك، ثم حكت له عن إحساسها أن هذه "الخواجاية" - برغم أنها خواجايه - قد اخترقتها إلى داخل الداخل.

.. شعرتُ يا جلال أنها وصلت إلى قالب الثلج الذى أتدّرع به فى أحشائي؛ ليحمينى منكم، من كل الرجال، يبدو أن ذلك طمأنها على مدى علاقتى بزوجها، لم تتردد فى دعوتى للعشاء معهما، وهى تجمع بين السماح والتحدى، موقف يغيظ، أليس كذلك، لكنه يملؤنى احتراما لها.

.وهو؟

.ولا عنده فكرة.

.بماذا؟

.لا بى، ولا بها، هذا ما أتصوّره.

.فلماذا تظلين معه؟

.ربما رغبة فى التشفى.

.ممن؟

.لا أعرف.

راحت صور ثلثهما القديمة تفتحه دون استئذان، كانوا يلمون، كانوا ثوارا بحق، ليسوا ثوارا تماما، مشروع ثوار، ففسوا اللعبة فى الوقت بدل الضائع، بل فى الوقت الضائع، "قادة بلا شعب، وثور بلا ثورة"، سرق الحكام الجدد الحلم من أهاليهم بالتلويح بتحقيقه، ثم سرقوا منهم الوطن باعتبارهم مختلين عقليا لا يُعمل حسابهم، ولا يصلحون للاستعانة بهم، ما الذى أتى بكل هذا إليه الآن؟ حاول أن يغير اتجاه أفكاره، فاستشعر فى نفسه قسوة غير مبرّرة، كأن "منال" تمثل خيبتهم جميعا، وكذبهم جميعا، عاد بكل سماجة ينصحها أن تتعرف على نفسها أكثر، أن تعطى نفسها فرصة أن تكون هى، كان يريد أن يبعد أفكار السياسة الزنخة عن أحلامه الطازجة، كاد من فرط سماجته أن يجرحها مباشرة، فوّتت له وهى تتماسك أكثر قوة، وهى تدافع عن موقفها.

.تصور يا جلال أننى فى قرارة نفسى أخشى أن أجد لهذه المسألة حلا، يخيل إلى، أنى أتمتع بالفرجة

على بلاهة الرجال الذين أخدعهم فى الفراش، أتصور أننى لا يمكن أن أترك نفسى لأى واحد منكم، لا أحد منكم يستأهل.

.ترعيبينى.

.انت مالك، انت أخذتها من قصيرها، واحتفظت بالمسافة طول الوقت، المسافة التى تسمح لك بالفرجة دون الاقتراب، أنا أتفرج وأنا فوق خشبة المسرح، أعنى تحت كوشة الملحن، ألقنهم فيرددون بعدى حتى تنزل الستار وقد استلقوا على خشبة المسرح وأنا أضحك.. أنت يا جلال تتفرج أيضا، لكن فى سيارتك الخاصة التى تخبئها فى دماغك، تترك محركها دائرا باستمرار حتى تهرب عند أول إشارة، سينما السيارات خدعة جديدة تبعد الناس عن بعضهم البعض.

.ليست عندى سيارة.

.الله يخرب بيتك، ما أنا عارفة؟

.أغيظك، باصطناع البلاهة.

.والله زمان.

.الحمد لله.

.بطل يا ابن الكلب.

.أبطل ماذا؟

. بطل حمد وتمحك فيما لا تعرف عنه شيئاً، قال الحمد لله قال، تريد أن تضحك عليه هو الآخر؟  
أحتاج إليه هذه الأيام ولا أريد أن أعترف بذلك، ألا تضبطين نفسك وأنت تحتاجين إليه؟ أحياناً،

يعنى..، ولو فى السر؟

. يبدو أننى سوف أحتاج إليه حتى يغفر لى بعدد الأطفال الذين سوف أعرضهم لمشروعك المتتيل

بستين نيلىة.

-7-

جلال يعلم يقينا كم يحب منال،

و هى كذلك،

لكنهما لا يفعلان شيئاً إلا أن ينكرا أى احتمال جاد لذلك.

هذا أفضل، وإن كان أكذب.

الكذب أفضل، وبأ حبذا لو بدأ كل واحد بنفسه، يكذب على نفسه أولاً، يحبك الكذبة جداً، ليضمن بعد

ذلك ألا تهتز فيه شعرة وهو يكذب على الدنيا بأسرها.

ماذا لو تجرأ فاقتربت، فاقتربت؟

هو يعرف، وهى كذلك تعرف، أنهما غير قادرين على التمثيل على بعضهما البعض، ربما لهذا هما لا

يقتربان.

أحياناً، وفى قمة الصراع اللفظى المناقشاتى يناديه جسدها نداء واضحاً بسيطاً مباشراً حتى يتصور

أنها ليست هى، يستجيب جسده من بعيد، يحتد النقاش فيبتعدا.

تصور مرة أنه من الممكن أن يلتحم جسدهما من ورائهما دون استئذان، ليتصاعدا معا كلهم (وليس

كلاهما).

= (هكذا فقط يتحقق المستحيل)

= (بطل، يا أختى، بطل كفى، مستحيل ماذا يا جدع انت، العلاقة البشرية أبسط من كل هذا).

= (أبسط يعنى أصعب).

= (كلام فارغ).

=الكلام الملئ هو أنه "جبان حالم"،

= وأنها "قوية عنيدة"،

= (وخلص)

إرتباط كامل النص:

[www.arabpsynet.com/Rakhaw/RakD210718.pdf](http://www.arabpsynet.com/Rakhaw/RakD210718.pdf)

\*\*\* \*\*

إصدار " الكتاب السنوي 2018 لشبكة العلوم النفسية العربية "

" منجزات 15 عاما من العطاء "

(شامل كامل الانجازات)

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBarabpsynet.pdf>

\*\*\* \*\*



شبكة علوم النفس العربية

نحو لياقة نفسانية أفضل

مؤسسة العلوم النفسية العربية  
معا ... نذهب أبعد